كان يتحسر على شبابه، ويأسف لأنه صار ذا لحية . . ويظهر أن الغيد الحسان من أمثالكن بغلطن فتارة يقلن له ياعمى ، وطوراً يقلن له يا أبى . . غريب ألا يعرفن أهو أب لهن أم عم ؟ . . ولكنك أنت لاتغلطين . . أنا عمك فقط . . متأكدة أنى لست أباك أحياناً ؟ »

فقالت صاحبتى : « أعوذ بالله منك ! »

وقالت الصغيرة : « متأكدة جداً . . عمى بالطبع . كيف يمكن أن تكون أبى ؟ »

قلت : « معقول ألا تغلطى . . لسببين : الأول أنى لا أرسل لحيتى كما كان ابن الرومى مضطراً أن يفعل لأن الله خلق السيفتى ريزور فى زمانى والحمد له ، أعنى لله ، بالطبع ، لا للموسى ؛ والثانى أن أباك المحترم مقبل علينا يتهادى فى مشيته . . أحسبه يفخر بأن له بنتاً مثلك . . له الحق ! »

وجاء الأخ الفاضل وقمت بواجب التعريف الذى لامهرب منه ، واتضح لى — بعد أن تجشمت عناء القيام بهذا الواجب انه كان يسعنى أن أريح نفسى ، فقد سبق لأخي أن عرف صاحبتى فى بيتنا .

وجلسوا . وجلست وأنا أتنهد وأنظر إلى صاحبتى وأقول :

« معذرة . ليس هذا ذنبى . وأنت ذكية ، وتستطيعين أن تدركى بسهولة أنه لا مهرب من الأهل . لقد جئنا إلى آخر الدنيا من ناحية الشرق ، ولو أنصف الزمان لذهب أخى الفاضل إلى آخر الدنيا من ناحية الغرب مثلا ، أو الجنوب أو الشمال ؛ ثلاث جهات كان يمكنه أن يذهب اليها ، ولكن جاذبية الدم تصرفه عن الجهات الثلاث وتدفعه إلى هذه الجهة فيدركنا ويملأ علينا الدنيا ، ويشعرنا بأنها فى الحقيقة أصغر مما كنا نظنها . ويؤنسنا طبعاً . أظن أن فى وسعنا أن نغتفر له هذا من أجل بنته ، من أجل عينيها اللتين وقعتا على بسرعة البرق ، نصفح عن أبيها ونرحب به . تعال ياجرسون والأمر لله . وحسبى الله »

ابراهيم عبد القادر المازنى

فى تبويب الكتب

للدكتور محمد عوض محمد

لقد تجرى فى حياتنا الأدبية الهادئة حادثات ونوادر طريفة تستحق أن تُسجَّلَ وتُثبت ؛ ومن ذلك هذه الرسالة التى كتبها صديقنا الأديب إسماعيل بن زيد إلى صديقه الفاضل الأستاذ طه حسين ، مُستَفتِياً ومداعباً

وصاحبنا إسماعيل يزعم أنه قد تكدّست لديه المؤلفات القيمة ، ولكنه لا يعرف كيف يقسم كتبه إلى أبواب وفصول ، ولذلك لم يستطع نشر شىء من مؤلفاته إلى اليوم . وهو يزعم فى هذا أن عناء التأليف والتصنيف ليس بشىء يذكر إلى جانب عناء التبويب والتفصيل .

فلم يكد يطالع فى كتاب للأستاذ حسن إبراهيم حسن قطعةً يصف فيها الأستاذ طه حسين بأنه « لا يشق له غُبار فى تبويب الكتب » حتى تناول قلمه الرشيق ، وأرسل اليه هذا الكتاب ، الذى عثرنا عليه بمحض الصدفة ، والذى نثبته هاهنا بنصه وفصه :

استفتاء

إلى العميد العظيم طه بن حسين !

نَعِمَ صباحُك أيها العميد !

وبعد فانى أريد أن أستفتيَكَ فى أمر شهد لك فيه صديقنا حسن إبراهيم حسن بالتقدم والبَراعة ، حيث قال فى غير موضع من رسائله الممتعة إنك لا يشق لك غبار فى تبويب الكتب

ولدىّ أيها العميد العزيز رسائل عديدة فى موضوعات جليلة ، حرت فى أمرى وفى أمرها : كيف أجعل لها أبواباً ونوافذ وشبابيك . . . وهى رسائل ـ وحقك ـ ذات خطر عظيم وشأن جليل ؛ أريد أن أتقدم بها إلى بعض معاهد العلم لكى أحصل بها على ألقاب فخمة ، وأسماء ضخمة . .

وما خيرُ حياة ، يعيش صاحبها من غير ألقاب ولا أسماء ؟ ولقد حدثنى من أثق بشهادته أن الألقاب أعظم شىء فى الحياة ، وأنه أفضل لابن آدم أن يكون له لقب ، من أن يكون له أدب .

وأن يكون له اسم ، من أن يكون له جسم . والألقاب مثلها كمثل الأثواب تستر الهنات ، وتكسب الفخامة والجلال .

ألا ترى أن الكُرُنب وهو نبت قليل الخطر ، حقير الجوهر ، قد سما على سائر النبات ، وشمخ بأنفه ، ومال بأعطافه ؛ وليس له من فضيلة يُدِلّ بها سوى أنه يتألف من ثياب بعضها فوق بعض ، فاذا نزعت عنه ثيابه لم تجده شيئاً .

ومثل هذا يقال فى الخس والجرجير ، وهما الغذاء الأساسى لكبار الكتاب والشعراء . . . (١)

صدقنى ، أيها العميد ! إن الثياب والألقاب هى كل شىء فى الحياة .

* * *

والآن لا بد لك — إن كنت ترعى للمودة حرمة ، وتستجيب لداعى الإخاء والصداقة — أن تُفتِينى كيف أرتب الأبواب لهذه الأسفار التى أريد أن أتقدم بها إلى رجال العلم ، إن كنت حقاً لا يشق لك غبار فى تبويب الرسائل والأسفار .

فأما الرسالة الأولى فهى « فى صيد الضفادع : كيف يكون ومتى يكون » فقد حِرْت كيف أبوّب هذه الرسالة . هل يكون الباب الأول منها فى الضفادع أم فى الصيد . . وقد ترامى لى أن أتحدث عن هذه الكائنات العزيزة ؟ هل هى من حيوان البر أم من حيوان الماء ؟ وهل نقيقها خارج من الحنجرة والبلعوم أم من الحلق والخياشيم ؟ وهل هى أسرع حين تسبح فى الماء ، أو حين تثب على أديم الغبراء ؟ وهل غذاؤها الطحلب الحامض أم الحلو ؟ والعشب اليابس أم الطرى ؟ وهل أرجلها أطيب فى المأكل أم أيديها ؟ وهل يُمَهِّدُ لصيدها بأناشيد وأغانٍ غريبة على طريقة شوبرت ، أم بأناشيد شرقية مثل نغمات معبد فى الثقيل الأول على مدار البنصر ؟ وهل تستطيع ضفدعة أن تسبح فى الماء إذا استلقت على ظهرها من شدة الضحك مثلا ؟ فان كانت عاجزة عن السباحة وهى فى هذه الحال . جاز لنا أن نفكر جدياً فى صيدها وهى تضحك حين تتلو عليها رسالة للجاحظ ، أو قطعة لموليير .

كذلك يجب أن تفهمنى فى أى باب أضع ما كان بين الضفادع ومسيلمة الكذاب ، وهل انخدعت بأكاذيبه كما ينخدع الناس بأحاديث الكذابين فى كل مكان وزمن . ومنى كانت الضفادع ممن يؤخذ بالأكاذيب ؟ فهل يجوز استخدام هذه الحيلة فى صيدهن والاستيلاء عليهن ؛ أم تلك خدعة لا تليق بالصياد الشريف والباحث العفيف ؟

فهلم يا مُبَوِّبَ الكتب ! ضع أبوابا ونوافذ ودهاليز لهذه الرسالة ولا تبطىء على فانى مستعجل .

* * *

أما الرسالة الثانية فموضوعها « تعليم الجراد مبادىء الفلسفة » فقد أنبأنا عالم فاضل أن هذه خير وسيلة لتحويل الجراد عن حياة النهب والسلب ، إلى حياة الشرف والاستقامة . . وتحولُ عقبات كثيرة دون تثقيف الجراد بهذه الثقافة الفلسفية المنشودة ، ذلك أن الجراد لا يستقر لحظة فى مكان ، فلا تكاد تتحدث اليه عن أفلاطون وتأخذ فى شرح القواعد التى تقوم عليها جمهوريته ، حتى تستهويه سنبلةُ قمح أو كوز من الذرة ، فيتركك فى فلسفتك العلوية وينطلق إلى عالمه السفلى . ولقد تظن أنه سيقف على كوز الذرة زمناً طويلا يمكّنك من أن تشرح له كتاب الأخلاق لأرسطو ، لكنك لا تكاد تفرغ من الفقرة الاولى من الفصل الأول حتى يكون الجرم قد سئم الكوز الأول ، ووثب يلتمس كوزا سواه .

غير أن العالم الجرادى الألمانى ميلر قام بعدة تجارب تدل على أن فى الجراد ميلا إلى فلسفة ما كيافلى ونيتشه ، ولا بد من أن نفرد باباً خاصاً لتحقيق هذا الأمر .

وهنالك عقبة أخرى تجعل من الصعب إدخال الفلسفة فى رأس الجراد ، ذلك أنى قد كشفت فى ساعة من ساعات الالهام أن الجراد لا يفهم بعقله ، بل بفمه وبطنه . فهل الفلسفة من المواد التى يمكن استيعابها عن طريق البطن والمعدة ؟ هذا أيضا باب مهم أرجو أن تفتينى فى أى جزء من الكتاب أجعله ، وأى الأقسام تليق به ويليق بها ، ولا بد كذلك من بحث عميق فى عادة النهب والسلب عند الجراد : هل ترجع إلى البيئة ، أو ترجع إلى الوراثة والغريزة ؟ فان كانت أصيلة فى فى النفس ، مغروسة فى الطبع ، فبأى الوسائل نحتال إلى إدخال الفلسفة فى نفوس طبعت على الانتهاب والاختطاف ؟

هلم أيها العميد وشمر عن ساعد التبويب ، ولا تدعنى فى حيرتى طويلا !

* * *

(١) يشير هنا الى كتاب الـدود والقيود للاستاذ العقاد

أما الرسالة الثالثة فهى : « فى استخراج أشعة الشمس من قشر الخيار » . وهذا موضوع قد أشار اليه الأستاذ (سويفت) ولكنه قصر فى متابعته واستقصائه . وفى نظرى قد آن لهذا الموضوع أن يقتل بحثا وتمحيصا ، حتى لو استنفدنا فى سبيل ذلك كل مافى الأرض من خِيارٍ وقِثّاء .

إن أشعة الشمس ضرورية للانسان والحيوان على السواء ؛ فقد حدثنا من ثق بعلمه أن القليل منها اذا أخذ فى فنجال على الريق كل صباح يشفى من الأمراض ، ويحدث فى البليد ذكاء وفى الغبىّ فَهْما ؛ وناهيك بما فى هذا من فائدة فى زمان ضعفت فيه الأحلام ، وصغرت فيه الأفهام . ولئن اعترض معترض بأن هذا الموضوع لا يهمنا لأن بلادنا غنية بأشعتها ، فليس فى هذا وجاهة ؛ لأن الباحث لا يختص ببحثه أرضا ولا بلداً ؛ وفى العالم أقطار كثيرة قد حرمت هذه النعمة ، ولابد من تزويدها بأشعة مستخرجة من قشر الخيار ، ومع هذا فان هنالك شكا كبيراً فى أن الأشعة التى تتأثر بها وتتعرض لها هاهنا ، هي من ذلك النوع الخيارى الممتاز ، وإلا لما انتشرت البلادة فى وادى النيل السعيد كل هذا الانتشار . فلقد بات من الثابت المعلوم أن للخيار مقدرة فذة يمتاز بها على سائر الكائنات فى استخلاص الأشعة النقية — فوق البنفسجية وتحتها — وتثبيتها فى ثنايا قشوره

هذا بحث طويل عريض عميق أرجو أن تسلط عليه غبارك الذى لا يشق ، من أجل تبويبه وتفصيله وترتيبه .

* * *

بقى البحث الرابع الذى أرجو أن يكون شهياً مُمتعا ، وهو « فى أثر الموسيقى فى طول الأنف وعرضه وارتفاعه » فقد تعلم غفر الله لك ماتقدم من ذنبك وما تأخر أن الأنف أشرف الأعضاء وأمثلها ، وأن العرب كانت لا تجد مدحا أسمى ولا شرفا أعلى من أن يكون الرجل أشمّ العِرْنين ، ولم تنحط الزّنج عن سائر الشعوب والأجيال ، ولم يستعبدهم الناس استعبادا إلا لما فى أنفهم من الفطَس . والذين زعموا أن فطس الأنف عند الزنج راجع إلى بيئتهم لم يأتوا بشىء ؛ والصحيح عندنا أن هذا راجع إلى موسيقاهم وغنائهم المنحرف كما وصفه ابن خلدون . ودليلنا فى هذا محسوس وملموس ، ذلك أن الشعوب المتمدنة من أهل أوربا وأمريكا ، منذ اتخذوا موسيقى الزنج للهوهم ورقصهم قد استعرضت أنوفهم ، واستولى عليها الفطس ، كأنما القوم يجلسون على أنوفهم إذا جلسوا لا على مقاعدهم . وقد قام بعض الباحثين المحققين بقياس سعة الأنف وارتفاعه ، فبدا له انخفاض محسوس فى الأنوف اليوم ، بالنسبة لما كانت عليه فى أواخر القرن الماضى وخرج من هذا البحث إلى نظريته المعروفة بأن العالم سائر كله إلى الفَطَس ، وأن الكبرياء والشمم محكوم عليهما بالفناء وهو يزعم فى هذا كله أنه راجع إلى كثرة البُقع فى وجه الشمس ؛ وهو فى تعليله هذا جدُّ واهٍ ، والصواب ماذكرناه من أن هذه الظاهرة مرتبطة ارتباطا وثيقا بانتشار موسيقى الزنج والاقبال الشديد عليها .

كذلك أخطأ نهج الصواب ولم يوفق فى بحثه ذلك العالم الذى أرجع هذه الظاهرة إلى انتشار عادة الحكّ على المناخير التى كانت سائدة أيام الحرب الكبرى وما بعدها ، فقد ثبت انتشار هذه العادة فى أزمنة أخرى مثل عصرنا بليون ، فلم يكن لها فى المناخير تأثير يذكر .

والراجح ماذكرناه من اتصال هذا بالموسيقى . والله سبحانه وتعالى أعلم .

والبحث فى هذا الموضوع متشعب الفروع والغصون ، متعدد المخارج والمداخل ، وأريد منك أن تبوّبه تبويباً يلمّ شعثه ، ويجمع بين شوارده ونوافره ؛ ويجب أن يكون تبويباً مرناً نستطيع أن ندخل فيه أية دراسة أنفية جديدة قد تبدو لنا فى أثناء التأليف والتصنيف

* * *

هذا بعض مالدينا من الرسائل التى نرغب منك أن تساعدنا فى تبويبها . فهلم أيها العميد ، واجلس فى كرسيك المعهود ، ممسكا فى يمينك سبُحتك التى تستعين بها على التسبيح ، وربما كانت لك فيها مآرب أخرى — وممسكا فى يسارك سيجارة تبعث الوحى وتفتح أبواب التبويب .

فان فعلت أسديت إلى البحث العلمى يدا يعمل بها ورجلا يمشى عليها . هداك الله إلى محجة الصواب ، وإليه المرجع والمآب

اخوك المخلص : اسماعيل بن زيد

طبق الاصل محمد عوض محمد